

المسائل المتباينة
لجنة النزعة والأحكام والربط

obeikandi.com

الصلات بين النقد والأدب والبلاغة^(١)

قبل البحث عن هذه الصلات أحب أن أطرح هذا السؤال: ما العلاقة الجذرية بين النقد العربى، والنقد الأدبى، والبلاغة العربية؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول: الصلات والروابط التى أبحث عنها فى هذا البحث الموجز بين الأدب والنقد والبلاغة ليست مستحدثة من اختراعى، وكذلك ليست مقصورة على موضوع أدبى بعينه، أو موضوع نقدى بذاته، أو بلاغى بنفسه، ولكن صلات وروابط جذرية قديمة قدم الأدب والنقد والبلاغة، وممثلة فى كل موضوعاتها بجميع فروعها، وهذا أمر بين واضح يؤيده المنطق العربى، والواقع النقدى كما تؤيده الحقيقة البلاغية.

فالأدب هو موضوع النقد والبلاغة، منه استمدا موضوعاتهما، وفى ميدانه أعمالا نشاطهما بفاعلية مؤثرة، فعلاقتهما به إذن علاقة طبيعية وثيقة متينة لأنها علاقة الفرع بالأصل، أو علاقة العضو بالجسد. والنقد الأدبى ظل الأدب المبدع، فإذا عز وجود الأديب المبدع فإن الفن النقدى يصبح بالتالى غير ذى موضوع. كذلك الأمر فى البلاغة فإنها وثيقة الصلة بالأدب من حيث الموضوع.

(١) الدكتور محمد عبد القادر ناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصر الأيوبى والملوكى الأول، رسالة الدكتوراة غير مطبوعة الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة عام ١٩٦٨م.

فإذا انتقلنا من هذا الاستدلال العقلي والمنطقي إلى التطبيق العملي فى مجال الأدب والنقد والبلاغة، ورجعنا إلى الوراء نستعرض الظواهر الأدبية، ونرصد ما صاحبها من خطوات عملية فى مجال النقد والبلاغة فإننا نضع أيدينا على ما يؤيد قدم الصلات الوثيقة المتينة، واتساع مداها بين النقد والبلاغة من ناحية، وبينهما وبين الأدب من ناحية أخرى.

إن البلاغة^(١) بمفهومها اللغوى العملى موجودة من قديم الزمان من يوم أن عرفنا أن هناك عربا تميزوا بقوة البيان ولكنها بمفهومها العلمى أو الفنى الحديث، وهى أنها تشتمل على أبواب وفصول ومواضيع لم تعرف إلا بعد أن بدأ علماء المسلمين فى القرن الثالث الهجرى^(٢) التأليف فى الإعجاز القرآنى، وكانت أبوابها فى كتب الإعجاز متناثرة، وبقيت على هذه الحال إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني فوضع لها اللمسات الفنية التى تجمعها دون أن تضر برونقها وجمالها، أو تحد من سلطانها الفنى والذوقى والبيانى^(٣)

(١) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ١٩

وما بعدها، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٥-٩.

(٢) الدكتور بكرى شيخ أمين: العتير الفنى فى القرآن ١٦٣، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦ هـ -

١٩٧٦ م.

(٣) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ٢٢

وما بعدها، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٧-٩،

والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٠٢.

أما بالنسبة للنقد الأدبي فإنه متقدم على البلاغة العربية وعلومها وفنونها، والدليل على ذلك هو تلك الكتب الأدبية، وما حوته فى بطونها ومتونها ونصوصها من اللفظات النقدية، وكذلك اختلاف الأمزجة والأذواق تجاه أى نص أدبى، إذ بينما يعجب أحدنا بنص أدبى معين، نجد آخرين لا يفضلون هذا النص الأدبى.. إن قصة الخنساء وحسان بن ثابت فى تاريخ الأدب العربى، واحتكامهما إلى النابغة الذبياني، وتفضيل النابغة للخنساء مما أثار حسان عليه، حتى قال: "أنا والله أشعر منك ومنها" فقال له النابغة حيث تقول ماذا؟ فقال حسان حيث أقول:

لنا الجففات الغر يلمعن فى الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء^(١) وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا إنك قللت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك^(٢) إن هذه القصة دليل قاطع على تقدم النقد على البلاغة فى البيئة الأدبية فى العصر الجاهلى.

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمر مزيقياء أحد أجداد الأزد القدامى فى اليمن، ومعروف أن الخنزرج قبيلة حسان أزدية. ويريد بالمحرق جبلة بن الحارث أمير الغساسنة فى الشام لأوائل القرن السادس، وهم أيضا من عرب الأزد. ومعروف أن العنقاء اسم طائر خرافى أيضا.

(٢) الجمهرة ٥٧، والدكتور عبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٠١-١٠٢، والدكتور داود سلوم: تاريخ النقد العربى من العصر الجاهلى حتى القرن الثالث ١٠-١٥، وطه أحمد

وبالإضافة إلى ذلك فإن الشعر والنثر الفني يمثلان الأدب الإنشائي، والنقد والبلاغة تمثلان الأدب الوصفي، والأدب الوصفي لا يأتى إلى الوجود إلا لخدمة الأدب الإنشائي ولخدمة أصحابه^(١)، وهذا دليل آخر على تقدم النقد على البلاغة، ومن الواضح أن النابغة قد أبدى لمحاته النقدية لخدمة الشعر بناء على ذوقه الفطرى. وفى إمكاننا أن نستنبط من هذه القصة فى تاريخ الأدب العربى الجاهلى الملاحظات النقدية الآتية:

أولا - إنه أول ناقد عربى وجد عقب أول منشئ، إذ لا يعقل أن يوجد أدب دون أن يوجد فريق يستحسن ويتذوق، وفريق يستقبح ويستهجى، والفريقان يمثلان الناقد فى كلتا الحالتين، ويجوز أن يكون هناك فريق ثالث وسط بين الأمرين والفريقين. فقد وجد النقد الأدبى أولا، ثم وجدت البلاغة، وقد سبقهما الأدب بقسميه ليكون ميدانا واسعا، ومجالا فسيحا لعملهما النقدى والبلاغى، فالنقد الأدبى أصل، والبلاغة فرع^(٢)، فالأصول لها الصدارة فى الوجود، ثم تأتى الفروع حاملة تلك الصلات والروابط الجذرية التى تربطها بالأصول ربطا محكما.

تكلمة

إبراهيم: تاريخ نقد الأدبى عند العرب ٢٩-٣٠، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١١، والأغانى ٩: ٣٤٠، والمرزبانى: الموشح ٦٠.

(١) الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة ٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ٩، و ٣٣. والدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين

البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصر الأيوبي والملوكى الأول، رسالة دكتوراه ...

ثانيا - إن النقد الأدبي أسبق من البلاغة كما يتضح ذلك من القصة السابقة، ومن غيرها من النماذج النقدية القديمة، فعندنا أدب، وهو شعر كل من حسان والخنساء، ونقد أدبي، وهو ملاحظات النابغة النقدية، وليس عندنا بلاغة. مفهوما الفنى، وهذه الملاحظات النقدية رد فعل للأدب، والأدب لا يمكن أن يمضى دون رد فعل له فى النفوس، ومن رد فعله فى النفوس نشأ النقد الأدبي.. نشأ نتيجة لصدى الأثر الأدبي فى نفوس الناس استجابة أو نفورا، فالتقد أسبق من البلاغة وأقدم حيث إن النقد فن يراقب الإنتاج الأدبي بمقاييسه الفنية، والبلاغة قواعد وعلم، ومقاييس النقد هذه تتحول فى البلاغة إلى قواعد، فالتقد لايسبق الأدب، والبلاغة لاتسبق النقد والأدب، والأدب مادة النقد الأدبي أولا، ثم مادة البلاغة ثانيا على الترتيب الزمنى، إلا أن حقل البلاغة غير بعيد عن حقل النقد، فالأول امتداد للثاني، ففي المجال الأدبي يلتقى النقد بالبلاغة فى تاريخهما الفنى الطويل^(١).

ثالثا - إن النقد متقدم على البلاغة، وذلك لأن التحليلات التى جاءت على لسان النابغة لحسان تحليلات نقدية محضة، إذ لم يقصد النابغة فى كلامه، أو فى تعليقه على شعر حسان أن يتكلم فى البلاغة، أو يوضح لنا الطريق الذى يمكن أن يكون فيه الكلام حسنا، بل وضح لنا أخطاء حسان متخذة المقياس الأول (الذوق)

(١) المرجع السابق ٣٠، والدكتور محمد عبد القادر عبدالناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصر الأيوبي والملوكى الأول، رسالة دكتوراه غير مطبوعة.. .

سندا له فى تدليله وتعليله لتحليلاته النقدية، وأراد بذلك أن يوضح الجمال الفنى فى النص الأدبى فى ذلك العصر من العصور الأدبية القديمة.

وعليه فالنقد الأدبى أسبق وجودا من الفن البلاغى، ومتقدم على البلاغة بمفهوم كل منهما علميا وفنيا، ومن قبل أن يعرف أنه نقد، وما ذلك إلا لاختلاف الأمزجة والأذواق حول نص أدبى واحد. وعلى كل حال فإن البلاغة تتصل بالنص الأدبى وحده، وأما النقد فمجاله أوسع وأشمل، ومن ناحية أخرى فإن البلاغة قد ارتبطت بالإعجاز القرآنى، بينما ارتبط النقد الأدبى بالشعر، لأن القرآن الكريم قد قامت حوله دراسات بلاغية، بينما الشعر تناولته دراسات نقدية^(١).

رابعا - إن حسان بن ثابت الشاعر المطبوع الموهوب كانت تحفى عليه عيوب شعره، لذلك نجده يثور عند ما قال له النابغة: إن الخنساء أشعر منك، فيقول له: أنا والله أشعر منك ومنها. وهذا دليل على اختلاف الأمزجة والأذوق، وضرورة وجود النقد عقب المنشئ، لأن حسان بن ثابت هدأت ثورته عند ما علم بالحقيقة، وعند ما سمع كلام النابغة قام من مجلسه وهو منكسر تحت وطأة الحقيقة

(١) راجع فى ذلك: الدكتور عبد العزيز عبد المعطى عرفة: قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة، الباب الأول ٨١ وما بعدها، والدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب، النقد وفكرة الإعجاز ٣٣٧ وما بعدها، ٤١٩، والدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة: دراسات فى النقد والبلاغة ٩-٤١، والدكتور أحمد كمال زكى: النقد الأدبى الحديث أصوله واتجاهاته ٤٥ وما بعدها، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨١م.

المكرهة المرة. وكذا قضية امرئ القيس وعلقمة وأم جندب عند ما احتكما إليها في وصف الفرس، ففضلت علقمة على زوجها^(١).

وكذلك نجد في عصر صدر الإسلام اللمحات النقدية من الرسول ﷺ^(٢) وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما، فقد جعل عمر بن الخطاب زهيرا أشعر الشعراء، لأنه لا يعاقل فى الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه^(٣)، حيث تثبت هذه اللمحات النقدية تقدم النقد على البلاغة فى صدر الإسلام.

على أن الأمثلة الأدبية كثيرة، والبراهين والأدلة متوافرة على تقدم النقد عن البلاغة، ولسنا فى حاجة إلى مزيد من الأمثلة والأدلة على ما تقدم فى هذا الشأن^(٤).

(١) الأغاني ١٨ : ٣٩٩، والدكتور داود سلوم: تاريخ النقد الأدبى من العصر الجاهلى حتى القرن الثالث ١٠-١٥، والدكتور عبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٠٦ وما بعدها.
(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ٩ وما بعدها، وابن رشيق: العمدة ١ : ١٠ - ١٢، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٣٩٢ وما بعدها، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٢٠.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١ : ٢٠٤، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبى ١٢٠.
(٤) الجمهرة ٥٧، وداود سلوم: تاريخ النقد العربى ١٠-١٥، وطه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى ١٤٠.

أما عن نشأة البلاغة وتطورها فإننا نستطيع أن نقول، ونحن مطمئنون: إن بحوث البلاغة قد بدأت منذ أن بدأ التأليف في الإعجاز القرآني، إلا أن هذا البدء لم يبرز البلاغة على حقيقتها الفنية، وإنما دار حول مفاهيمها ومواضيعها، وأبان بعض محاسنها وأفانينها الجمالية، حتى أتى عبد القاهر الجرجاني^(١) فوضع لها اللمسات الفنية والمنهجية في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. وعلى هذا فإن عبد القاهر الجرجاني يعتبر المهندس الفني للبلاغة العربية^(٢). والتأليف في الإعجاز القرآني قد أثرى البلاغة والنقد معا، ولو لاه لبقيت الأفكار النقدية والبلاغية حاملة جامدة حتى الآن^(٣).

وبهذا يتبين لنا أن الاتجاه إلى التأليف في الإعجاز القرآني للكشف عن أسرار القرآن البيانية والجمالية والفنية كان لفتات نقدية، ودراسات بلاغية فتحت آفاقا واسعة أمام هذين العلمين أو الفنين الجميلين. والعلماء الذين ألقوا في الإعجاز القرآني كثيرون.. منهم الواسطي في كتابه إعجاز القرآن في نظمته، والباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، والخطابي البستي والرماني والجرجاني في

(١) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٦٠، وبدوي طبانة: البيان العربي ١٦١، وطه أحمد إبراهيم: النقد الأدبي عند العرب ٣١ - ٣٣، والدكتور محمد زغلول سلام تاريخ النقد العربي ٢١٤ وما بعدها.

(٢) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ٢٢، وتاريخ النقد العربي من القرن الخامس ١١٤، وعبد الرحمن عثمان: معالم النقد الأدبي ١٧٠-١٧٤.

(٣) تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ١٧، وتاريخ النقد العربي من القرن الخامس ٢١٠.

”الرسائل الثلاث فى إعجاز القرآن“^(١)، وابن قتيبة فى كتابه مشكل القرآن،
والفراء فى كتابه معانى القرآن، والجاحظ فى كتابه نظم القرآن ولكن أول من
تكلم عن البلاغة فى إعجاز القرآن الباقلانى والواسطى^(٢).

وأما كتاب ”بجاز القرآن“ لأبى عبيدة فيعتبر تفسيراً للقرآن الكريم، وليس
أول كتاب فى الإعجاز القرآنى، إلا أنه قام بأول تجربة من هذا النوع، وهو أول
كتاب يصلنا فى الدراسات القرآنية. وقد كان النص القرآنى مجالاً واسعاً وخصباً
للعلوم العربية، والفنون البلاغية، لأن الفنون البلاغية فى تفصيلها وتدقيقها الفنى
الكامل لا تحتلها النصوص الأدبية، ولا تنطبق إلا على النص القرآنى^(٣) حيث إنه
منبع فياض للبيان العربى المبين.

ولكن ما لنا والرجوع إلى الوراء البعيد، حسبنا أن يكون رجوعنا إلى بداية
العصر العباسى^(٤) الذى شهد تطور الأدب العربى، كما شهد تطور النقد والبلاغة
العربية فى الوقت نفسه، وإن شئت فقل: شهد نشأتها الحقيقية، ولا شك فى أن
اقتزان الحركة النقدية والبلاغية بالحركة الأدبية فى التطور فى هذه المرحلة من
مراحل تاريخ الأدب العربى، يدل على الصلة الوثيقة بين النقاد والبلاغيين من

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، تحقيق خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف. عصر
١٩٥٥م.

(٢) الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ١٠ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٢٥ وما بعدها.

جهة، وبينهم وبين الأدباء والكتاب من جهة أخرى. فلو لا ما أحدثه الأدباء من تطور فى الأدب العربى لما وجدنا التطور النقدى، والتطور البلاغى. نعم، كانت هناك عوامل أخرى ثقافية وعقلية وسياسية واجتماعية ساعدت على تطور النقد والبلاغة، ولكن هذه العوامل ما كانت تؤدى دورها الأدبى فى هذا التطور من غير أن يكون فى الأدب ذاته ما يدفعها إلى الأداء العملى فى هذا الميدان.

ثم إذا استعرضنا بعد ذلك بعض الظواهر الأدبية كاللفظ والمعنى، والفنون البديعية، والسرقات الأدبية، فإننا نجدها تنعكس بوضوح على النقد والبلاغة، أى أن الأدباء بإيجادهم لهذه الظواهر فى الأدب، فتحوا مجال الحديث فيها أمام النقاد والبلاغيين^(١) العرب.

وعناية الأدباء منذ العصر العباسى بالتأنيق اللفظى نبهت الجاحظ إلى أن يفتح باب قضية من أوسع وأهم قضايا النقد فى تاريخ الأدب العربى، وهى قضية اللفظ والمعنى^(٢)، ولم يلبث النقاد والبلاغيون العرب من بعده حتى ألحوا - بشدة ويعنف وإصرار - على هذه القضية الأدبية بين مرجح للمعنى، ومؤيد للفظ، وموفق بين

(١) راجع فى كل ذلك: الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر: الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء فى مصر فى العصرين الأيوبي والملوكى الأول، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة رقمها ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١: ١٣٦، ١٤٤، و١٥٠، والدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ٦٦، و١٨٦، والدكتور مصطفى الصاوى الجوينى: البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ٢٤٢ وما بعدها.

اللفظ والمعنى، وبجانبهم الأدباء يمدونهم بما يتكلمون فيه، ويبالغون فى التأنق اللفظى، حتى أدى ذلك إلى حدوث رد فعل عكسى عند مهندس البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى الذى قرر - بإصرار وإلحاح شديدين - أن الإعجاز ليس فى اللفظ ولا فى المعنى وحده، وإنما هو فى النظم، وعلاقة الكلمة بالكلمة، والجملة بالجملة، وفى إطار العبارة الأدبية والنص الأدبى فى الأدب العربى.

وبهذا نرى أن هذه الظاهرة الأدبية - قضية اللفظ والمعنى - قد نشأت فى الأدب، ثم أثرت فى النقد والبلاغة. ومن ناحية أخرى نرى أن اهتمام النقاد والبلاغيين بها دفع الأدباء بعد ذلك إلى العناية باللفظ دون المعنى، وحتى دون العناية والاهتمام بالنظم والعلاقات، بحيث لم تجد صيحة عبد القاهر الجرجانى آذانا صاغية، ذلك لأن تيار التأنق اللفظى كان أشد وأقوى من أن يقاوم بأية صيحة مهما علت، وإن كانت هذه الصيحة صادرة من مهندس البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى الناقد البارِع، والبلاغى القدير، والأديب الجدير بالثقة، أو من أمثاله من النقاد والبلاغيين والأدباء.

وتعمد البديع فى الأدب^(١) وفنونه تحقيقا للتأنق اللفظى، واعتقادا بأهمية اللفظ دون المعنى فى النقد والبلاغة، قد أثار معركة أدبية أخرى ظفرنا منها بما كتبه الجاحظ، وابن المعتز، ومن جاء بعدهما عن البديع. فلو لا وجود البديع فى

(١) تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ١٥٥، وتاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ٣١٣ وما بعدها، والدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٦٢ وما بعدها، والدكتور بدوى طبانة: البيان العربى ٦٢ وما بعدها.

الأدب العربى، لما حدثت تلك المعارك الأدبية بين الأدباء والنقاد والبلاغيين، ولما ظفرنا بما ظفرنا به من دراسة عنه، ومن تأليف مبكر فيه^(١). وبهذا تتضح أمامنا صلة النقاد والبلاغيين بالأدباء، وبالتالي صلة النقد والبلاغة بالأدب العربى وفنونه القولية.

ومن ناحية أخرى فإن اهتمام النقاد والبلاغيين بالبديع كان من أهم العوامل التى شجعت الأدباء بعد ذلك على الإكثار منه فى كتبهم. وهذا يؤكد وجود الصلات والروابط القوية بين النقاد والأدباء والبلاغيين، وتبادل التأثير والتأثر بينهم فى مجالات الأدب والنقد والبلاغة^(٢) وهى - على كل حال - صلات وروابط لا انفصام لها.

وتتصل بظاهرة قضية اللفظ والمعنى ظاهرة أدبية أخرى ليست أقل أهمية من قضية اللفظ والمعنى، ألا وهى قضية السرقات الأدبية^(٣)، وذلك ما كان قد وقر فى أذهان الأدباء من أن اللفظ شئ والمعنى شئ آخر، وأن الفضل كل الفضل للفظ، جعلهم يستيحيون لأنفسهم الأخذ من معانى السابقين المطروحة فى الطريق،

(١) كتاب البديع لابن المعتز من أوائل الكتب فى فن البديع. البيان العربى ٩٥ - ١٠٠. للدكتور بدوى طبانة.

(٢) القاضى الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣٣، وبدوى طبانة: البيان العربى ١٢٣ وما بعدها.

(٣) الدكتور محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ٧٠، ١٩٧٧، ١٢٣.

ويضيفون إليها ألوانا من البديع العربى. وهنا وجدنا النقاد المتعصبين للقديم والقدماء يقفون أول الأمر للأدباء بالمرصاد، ويحصون عليهم معانيهم، ويكشفون عن سرقاتهم، تقليلا من شأنهم، وشأن بديعهم الذى سيطر عليهم وعلى إنتاجهم الأدبى سواء بسواء دون التمييز.

ولكننا لم نلبث أن وجدنا من النقاد والبلاغيين من يتجاوز هذا الأخذ، ويلتمس العذر للآخذين السارقين، ولم يكف النقاد والبلاغيون بذلك، وإنما رسموا للأدباء طريق الأخذ والسرقة من معانى السابقين، كما فعل ابن طباطبا فى كتابه عيار الشعر، ثم انفسح بعد ذلك مجال الحديث عن الأخذ والسرقات أمام النقاد والبلاغيين، حتى عدها بعضهم أخيرا من البديع. وهذا أدى إلى جرأة الأدباء، وإغارتهم على معانى القدماء، واستباحتها ما داموا يكسونها ألفاظا غير ألفاظهم محلاة بالبديع وفنونه^(١) اللفظية المختلفة.

وليس من الضرورى فى هذا الموجز أن أتبع هذه الظاهرة الأدبية بين النقاد والأدباء والبلاغيين، فحسبى الآن ما أشرت إليه من أن وجودها فى الأدب - تبعا لتصوير الأدباء لها - هو الذى دفع النقاد والبلاغيين دفعا إلى الحديث عنها، ثم صار لهذا الحديث النقدى والبلاغى أثره بعد ذلك فى الأدباء. ومعنى هذا أن ظاهرة

(١) ابن الأثير: المثل الثائر ٣: ٢٥٩-٣٣٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الرفاعى بالرياض، والدكتور عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٢٣٢ وما بعدها، والدكتور بلوى طبانة: السرقات الأدبية ٣٢ وما بعدها، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ - ١٩٦٩م.

السرقاا الأءبفة ءلقة من ءلقات الااصال بفن النقاا والأءباء والبلاغبفن؁ وإن شئت قل بفن النقاا والأءب والبلاغة.

ومءمل ما أقام أن وءوا الظواهر الأءبفة الاالا - قضافة اللفظ والمعنى؁ والفن البءبفى؁ والسرقاا الأءبفة - الاءى أشراا إلفها فى مواضوع الأءب؁ كان له أاثره فى النقاا والبلاغبفن. ثم إن وءوا اءامام هؤلاء بها قا شءع الأءباء المأأرفن من بعءهم على العنافة بها؁ وءلك بالأكاار منها فى أءبهم؁ أى أن الصلاا والروابط بفن النقاا والأءباء والبلاغبفن أمر واقع فى اارفا الأءب العربى؁ ولها ءورها الواضء والمؤا فى كل من النقاا والأءب والبلاغة وفنونها العءفة.

وأقصا بكلمة "البلاغبفن" ما كانت ءءل علىه هءه الكلمفة من معنى واسع عنا من كانوا فمئلون البلاغة العربفة فى العصور الأولى من نشأة البلاغة واءورها؁ ءفء كانت اءلل على الماشءلفن بقواعا البلاغة؁ وعلى أصءاب الأفواق؁ والآراء النقافة؁ وعلى ءامعى الأنواع والفنون البءبفة ومأازعفها من علماء العربفة.

وأما عن أصءاب الآراء النقافة فلم فكن عناا فى الك العصور من اارفا الأءب العربى؁ وبءاصة فى العصر الاءى فءور فف هءا البءا الموجز طائفة من النقاا على ءءة؁ وأأرى من البلاغبفن؁ ولم فكن عناا كاب نقافة مءصصة فى النقاا العربى وءءه؁ وأأرى مءصصة فى البلاغة العربفة وءءها؁ وإنما كان المؤلف الواحد فقوم بوظففة الناقا والبلاغى - وءاى الأءبب أفضا - فى وقا واحد؁ وفى مؤلف واحد؁ فهو فءلل كناقا؁ وفنلوق كأءبب؁ وفسوق القواعا

والتعريفات كبلاغى^(١)، وهو نفسه يحكم فى المسألة الواحدة من المسائل التى يعرض لها فى مؤلفه الواحد، لأنه لم يكن يفهم النقد بمعزل عن البلاغة والأدب^(٢) والإنشاء.

غير أن نسبة مباحث النقد إلى مباحث البلاغة كانت تختلف من مؤلف إلى آخر، ومن عصر إلى عصر فى تاريخ الأدب العربى، فقد كانت مباحث النقد تزيد عن البلاغة بوجه عام فى المؤلفات الأولى^(٣)، ثم تضاءلت عنها فى العصور المتأخرة، حتى اختفت نهائيا عند طائفة البلاغيين العلماء^(٤). وتضالول النقد فى مؤلفات المتأخرين يجعل هذه المؤلفات أقرب من البلاغة منها إلى النقد - فيما نحتكم إلى التعريفات التى تفرق بين النقد والبلاغة - وعلى هذا فاعتبار أصحابها من البلاغيين أدنى إلى الصواب من اعتبارهم نقادا يوجهون الأدباء وإنتاجهم الأدبى.

ثم إن المؤلفات التى كانت تضم مباحث النقد إلى جانب مباحث البلاغة كالمثل السائر، ومعالم الكتابة، وإن لم يطلق عليها مؤلفوها اسم (البلاغة) إلا أنهم كانوا يقصدون بها البلاغة أيضا، فابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) يصرح أن

(١) ضياء الدين ابن الأثير فى كتبه الثلاثة: المثل السائر، والجامع الكبير، والاستدراك خير مثال لذلك.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد ٣٠٩، وما بعدها.

(٣) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٢١-١٢٣، دار المعارف. عصر عام ١٩٦٥م.

(٤) المرجع السابق ٢٧١. وما بعدها.

موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة^(١). وابن شيث فى كتابه (معلم الكتابة) يضع (البلاغة ومايتصل بها) عنوانا لأهم فصل فى كتابه، وهو الفصل المتضمن لمباحث البلاغة. بمعناها الواسع الشامل، ويذكر قبل ذلك أن البلاغة عليها المعول فى الكتابة والإنشاء.

فإذا تركنا المؤلفين الذين كانت لهم أذواق وآراء نقدية، إلى البلاغيين العلماء أصحاب القواعد^(٢) والنقسيات كالبهاء السبكى، فإننا نجده يستهل شرحه للتلخيص بقوله: "أما بعد فإن تلخيص المفتاح فى علم البلاغة وتوابعها، بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه، أنفع كتاب فى هذا العلم"^(٣) أى فى علم البلاغة.

وهكذا نجد المؤلفين وإن لم يسموا كتبهم ومؤلفاتهم باسم (البلاغة) إلا أنهم اعتبروها فى البلاغة، سواء تضمنت بجانب البلاغة بعلومها الثلاثة مباحث نقدية أم لم تتضمن هذه المباحث النقدية.

لذلك سنرى خلال هذا البحث الموجز عن ابن الأثير هذه المصطلحات: النقاد والأدباء والبلاغيين، أو النقد والأدب والبلاغة. وذلك نظرا لأن الصلات والروابط بين الأدب والنقد والبلاغة متينة قديمة قدم الأدب والنقد والبلاغة، ونظرا

(١) المثل السائر ١: ١٥، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الرفاعى بالرياض، والدكتور

شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٢٤.

(٢) راجع الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٢٧١ وما بعدها، والدكتور عبد العزيز

عبد المعطى عرفة: قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية ٦٧٥ وما بعدها، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) شروح التلخيص ١: ٤.

لأن ابن الأثير تبعاً لظروف عصره ناقد وأديب وبلاغي، كما أنه كاتب ونائر وشاعر من طراز خاص تبدو فيه آثار عوامل البيئة الدينية، والعلمية، والأدبية، والفنية واضحة جلية، فهو صورة صادقة للحياة الثقافية من الأدب والنقد والبلاغة، تتمثل في شخصيته الجوانب الفنية والمصطلحات الأدبية بوضوح شديد.

إن صلة ابن الأثير الأديب بالأدب وفنونه قوية الجذور، وعلاقة ابن الأثير الناقد البصير بالنقد العربي متينة أصيلة، وروابطه بالبلاغة العربية كبلاغي بارع جذرية عميقة، وتعلقه العميق بالكتابة ككاتب ماهر يصل إلى درجة العشق المحترف، وقد عاش ابن الأثير تحت ظل تلك المظاهر في مختلف صورها أدبية ونقدية وبلاغية وفنية، وقد تركت آثارها العميقة في مآربه البيانية، وفي اتجاهاته البلاغية، وآرائه النقدية، وفي منه الكتابي الذي عارض به معاصره القاضي الفاضل. فهو إذن حلقة اتصال مباشر بين الأدب والنقد والبلاغة، وهمزة وصل بين الأدباء والنقاد والبلاغيين، وبالاختصار فإنه استمرار لتلك العلاقات الأدبية، ودوام لتلك المقاييس الفنية، وتجسيد لتلك الفنون والألوان في صورها اللفظية والمعنوية^(١) المختلفة.

(١) راجع تفصيل ذلك في "الصلات المتبادلة بين البلاغيين والأدباء في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول" للدكتور المرحوم محمد عبد القادر عبد الناصر، رسالة الدكتوراه غير مطبوعة، الرقم ٢٢٦٧ مكتبة جامعة القاهرة، كلية الآداب، عام ١٩٦٨.